كلية : الآداب

القسم او الفرع : قسـم التاريـخ

المرحلة: الثالثـة

أستاذ المادة : أ.د محمد يحيى أحمد عباس الجوعاني

اسم المادة باللغة العربية : تاريـــخ أوربـــا الحديـث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern European history

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: أوربا في أواخر القرن الثامن عشر

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : Europe in the late eighteenth century

أوربا في أواخر القرن الثامن عشر

في أواخر القرن الثامن عشر تغيـرت مركز القـوة في أوربا بظهور كل من روسيا وبروسيا ، وبتفـوق بريطانيا العظمى بما وراء البحار وبنمو حركة الانقلاب الصناعي فيها حتى أصبحت أكثر القوى الأوربية ثروة واعزها منعة وأكثرها أسطولا رغم فقدانها مستعمراتها الواسعة في أمريكـا الشمالية بعد حـرب الاستقلال الأمريكية (1776 - 1783) أما فرنسا فقد خرجت من حروب القرن الثامن عشر اضعـف مما كانت عليه في عهد لويس الرابع عشر عنصر التفوق الفرنسي (1643 – 1715) ولكـن ظلت لها المكانة الدولية العليا في حضارة أوربا ، وفي توجيه السياسة الدولية ، تلك المكانة التي ارتفعت في أعقاب انتصار التحالف الفرنسي مع الثوار في الولايات المتحـدة الأمريكيـة او تحقيق استقـلال هذه الدولة فـي العالـم الجديـد.

أما الإمبراطورية النمساوية ، فكانت لا تزال تمثل ذلك التـراث الإمبراطـوري الذي ملأ العصر الوسيط ضجيجـا ورغم الهزائم التي منيت بها خلال النصف الثاني من القـرن الثامن عشر ورغم مظاهر التفكك الواضحة في جسمها استطاعت هذه الإمبراطورية أن تستمـر كقـوة كبيرة في قلب أوربا. وكـان وضعها الجغرافي والاستراتيجي يفرض عليها باستمرار أن تنظر بعين الحذر إلى أي تفوق تحرزه روسيا في منطقة البلقان على حساب الدولة العثمانية التي بدأت الشيخوخة تذب فيها بوضـوح في أواخر القـرن الثامن عشر، وخاصة بعد معاهدة كوجك كينارجي المذلة مع روسيا سنة 1774 فأصبحت ممتلكات الدولة العثمانية المتداعية في البلقان مجالا للتسابق والتصـادم الروسي النمساوي. كما كـان على الإمبراطورية النمساوية أن تراقب باستمرار تحركات بروسيا السياسية والعسكرية حتى لا تؤخذ على حين غـرة..

إن مثل هذه الظروف كقيلة بان تحمل الإمبراطورية النمساوية أعباء كبيرة وكانت رغم اتساعها تعانـي من نقص في الموارد ، وكذلك يرجـع إلى التفكك السياسـي الداخلـي الكبيـر. فلقد كانت الولايات والدوقيات متعددة جدا ، وكان من المتعذر تجميع هذا الشتات تحـت لواء عمل سياسـي او عسكـري موحد ، كما أن الحكومـة النمساوية كانت تجد صعوبة كبيرة ومشقة بالغة في جمع الضرائـب من تلك الإمارات والدوقيات العديدة المشاغبـة المتنافـرة

فقد كانت الإمبراطورية النمساوية مؤلفة من عدة قوميات فكـان أي إصلاح تقوم به الحكومـة يرضي جماعة ويغضـب أخرى ومن ثم كان من المتعـذر أن ينفـذ اصلاح شامل للبـلاد.

وعقبة أخرى شديدة كانت تواجه فكرة الإصلاح الشامل وهي تنثر ممتلكات الإمبراطورية النمساوية قلها ممتلكات في غرب أوربا على فرنسا ، وهي بلجيكا وكانت منطقة صعبة المراس كثيرة الثورات وفي اقصى شرق القارة كانت المجر تعالي تحت الحكم النمساوي ومستعدة للثورة الجامعة عليه وفي ايطاليا كانت يد الإمبراطورية النمساوية هي العليا فكان هذا التباعد بين الممتلكات وتعدد القوميات ، ونمو بروسيا على جانبها الشمالي الغربي، ونمو روسيا على جانبها الشرقي كل هذا كان يخلق مواقف معقدة أمام الحكم الإمبراطوري في فينا وفي اعتقادنا أن موقف الإمبراطورية النمساوية في أواخر القرن الثامن عشر كان أدق موقف سياسي في القارة . فبسبب عدم الثقة والكراهية المتبادلة بين الدول الثلاث ، روسيا وبروسيا والنمسا، والى جانب مسؤولياتها أما الأوربيين من اجل عمل ضد الوجود العثماني الإسلامي في البلقان ، كانت هذه الإمبراطورية النمساوية معرضة لان تحارب في عدة جبهات إذا ما تلزم الموقف الدولي وهو عباء باهض التكاليف

الى جانب هذه الدول الكبرى كانت توجد دولة متوسطة القوة في أوربا ، وسعة المستعمرات في ما وراء البحار ونهي بذلك الأراضي المنخفضة او هولندا . ومن هنا كان لها دورها في الصراعات الاستعمارية او كذلك خلال الأزمة الدولية الكبرى في أعقاب الثورة الفرنسية وخلال حروب البلقان.

وكانت ايطاليا مجرد تعبير جغرافي ، فيها من الممالك المستقلة واحدة في أقصى الشمال الغربي على الحدود الفرنسية . وهي مملكة سردينيا (بديمونت) وأخرى في أقصى الجنوب وهي مملكة نابولي وهي التي تسيطر على نصف ايطاليا الجنوبي تقريبا وفي ايطاليا جمهوريتان بحريتان مستقلتان كان نجمهما قد أفل وهما جمهورية البندقية في الشمال الشرقي ، وجمهورية جنوه ، منافستها العتيدة ، في الشمال الغربي في ايطاليا. وتوجد في وسط ايطاليا الولايات البابوية والتي تعيش على تراث الماضي واساليب قديمة لا وهنا وهناك تناثرت الدوقيات الإيطالية المشهورة مودينيا ويارما وتوسكينا المرتبطة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، هذا بينما كانت دوقية ميلان الغنية تابعة للإمبراطور النمساوي.

وهناك في شبه القارة الأيبرية كانت توجد دولتان قوميتان هما : اسبانيا والبرتغال وكانتا قد اتحدتا لمدة من الزمن (1580 - 1640) ثم لم يلبث أن الحل هذا الاتحاد . وكانت كل منهما صاحبة إمبراطور فيما وراء البحار ولكنها إمبراطوريات كانت توشك أن تتحلل عندما تحين الفرصة . ولا شك أن نجاح الثورة الأمريكية ، وظهور الولايات المتحدة كانت ضربة قاصمة ، وجعل أمر استغلال المستعمرات الاسبانية في أمريكا اللاتينية مسالة وقت.

وفي أوربا بصفة خاصة بدأت حركة فكرية نشطة عرفت باسم " حركة الاستنارة " : وهي امتداد لعصر النهضة الأوربية ولكن على أسس جديدة ، كما كانت لها قدرات أوسع على نشر مفاهيمها

كانت الجامعات قد أصبحت أكثر عددا ، وظهرت أكاديميات على مستويات رفيعة في كل من فرنسا وانكلترا ، وانتشرت الصحف في العواصم الأوربية وكبريات المدن وظهر العديد من العلماء الذين أسهموا في رقي الإنتاج الفكري والعلمي في وطنهم وفيما وراء حدود وطنهم فلقد أصبحت الأفكار تنتقل من بلد آخر عن طريق الصداقة والمؤلفات التي أصبحت تطبع بكميات أكبر وتوزع على نطاق واسع وكانت المواصلات بين الدول الأوربية قد أصبحت أكثر سهولة من ذي قبل وبشكل خاص في فرنسا وخلال القرن الثامن عشر انتشرت النوادي والجمعيات والصالونات التي اجتمع فيها أصحاب الفكر النقدي بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي اليها هؤلاء . ففي كثير من الصالونات كانت تلتقي شخصيات من الطبقة الأرستقراطية مع أخرى من الطبقة البرجوازية الأمر الذي جعل الأفكار تتناقل بين هاتين الطبقتين وكانت البرجوازية هي الرابحة لأنها هي التي تحصل على أنصار لها من الطبقة الأرستقراطية دون أن تحصل الأرستقراطية على تأييد البرجوازيين إلا في حالات نادرة.

وكانت سيدات ورجال هذه الصالونات ، خاصة في فرنسا يجدون الفخر كل الفخر في أن يكون بين المترددين على صالوناتهم احد فلاسفة العصر او كتابة أو علمائه. وهؤلاء الفلاسفة والكتاب كانوا من الطبقة البرجوازية . وكانت آراؤهم الناقدة بشدة الطبقة الأرستقراطية الفرنسية تثير عليهم الحكومة إلا أنها كانت تعجز عن عقابهم في كثير من الأحيان بسبب حماية سيدات ورجالات الصالون لهؤلاء الفلاسفة والكتاب، ولقد اشتهرت (مدام بمبادور) بحماية الفلاسفة الفرنسيين وإعطائهم الفرص الواسعة لكي يتحدثوا بإسهاب عن أفكارهم

الى جانب هذه الصالونات ، كانت توجد جمعيات سرية ذات أساليب معقدة كل التعقيد ، عند قبول عضو فيها. وكانت تلك الصالونات والنوادي والجمعيات تنشر أفكار مثيرة للانتباه عن المساواة والإخوة والحرية . ومنها كانت تنطلق دعوات ذات طابع تحرري حتى لقد أصبح من مظاهر التقدم حين ذاك ترديد أفكار الحرية والنقد اللاذع الموجه من جانب الفلاسفة والنقاد الى الملكية ورجال الدين والنبلاء ولقد ظهر حين ذلك مجموعة من فلاسفة الإصلاح السياسي والاجتماعي في فرنسا كان لهم اثر كبير في توجيه الأنظار بقوة إلا أن النظام الملكي وتحكم الأرستقراطية في ثروة البلاد أصبح نظاما قديما لا يليق بفرنسا وعلى رأس هؤلاء الذين سيكون لهم اثر كبير في نشوب الثورة الفرنسية :

1- فولتير 1694 - 1768

٢- مونتسيكيو 1689 - 1755

٣- جان جاك روسو 1712 – 1778

تستطيع أن نقول أنها كانت الفولتير مكان الصدارة بين الفلاسفة والمفكرين الذين اعدوا الشعب الفرنسي لثورته العظمى عام (١٧٨٩) وهذا يرجع الى ان مؤلفاته كانت أوسع انتشاراً

ولأنه كان يركز على مهاجمة الاكليروس الكاثوليكـــي، وكان مجرد مهاجمة هذا الاكليروس كفيل بإثارة انتباه الناس من جميع المستويات خاصة وان فولتير كان يتمتع بموهبة في الكتابة الساخرة اللاذعة جعلـت مؤلفاتـــه تُطبـع المرة بعد المرة ، الأمـر الذي جعل افكـاره تنشر على مسطح أوسع وعلى عدد اكبـــر بكثيـر إذا قيس بانتشار أفكار غيره من الفلاسفـة والمفكريـن

ومما ساعد على انتشار أفكار و انتقادات فولتير لنظـم الحكم في فرنسا والاكليروس بها انه كان يصيغ في عباراته المثيرة للسخرية أفكارا كان الشعب يبحث عمن يستطيـــع أن ينقلها من مجال الهمس واللفظ الى مجال النقد العلني والأفكار العامة . ولا شك أن من أسبـاب الإقبال الشديد على كتابات فولتير ، ليس فقط ذلك الأسلوب الساخر الرائع ، أو تلك الأفكار التي كانت تبحث عن مؤلف يبرزها ، وإنما أيضا أن القـرن الثامن عشر كان قرن يحكم فيه الناس عقولهـــم أكثر من ان يحكموا تقاليدهم ، وبالتالي فالناس كانوا أكثر قدرة على النقد للنظم القديمة واكثر تقبلا للأفكار الجديدة القائمة على اساس الفكـر الحديد والعلم الحديـث وهذه الاتجاهـــات بصفة عامة كانـت تتعارض مع نظام الحكم الملكي المطلق ومع الأرستقراطيـة ومع الاكليـروس المتشبث بتقاليـــده وامتيـازاتـه.

كانت دعوة فولتير إلى توحيـد القوانين ومساواة الناس جميعهم إزاءها صدى لما كان يعتمـل في الصدور وطالب فولتير بان يكون الفـــلاح راضيا كل الرضا عند رفع الضريبة المفروضة عليـه ، وهذا لا يتم الا بعدالة توزيع الضرائب . وهذه افكار جديـرة بان تثير انتباه الطبقة الثالثة وتبعث فيها روح التحـرك من اجل الحصول على المســـــــــــــاواة في الضـرائب

كذلك كانت دعوة فولتير إلى إزالة كافة القيود المفروضة على حركة التجارة والضـــــــرائب الداخليـة المفروضـــة على تلك التجارة عند العبـــور من ولاية الأخرى كانت هذه الدعـــوة ، التـي كانت هدفا رئيسيا من أهـــداف البرجـــوازية ، سببا في أن تنتشـــر أفكار وانتقادات فولتيـــر لنظام الحكم الملكي والأكليروس في فرنســا

حقيقية لم يكن فولتيـــر صاحب نظرية سياسيـــة مثل لوك وروسو ، وحقيقة لم يقدم للشعب الفرنســـي نظاما للحكم أو للاكليـروس يحل محل هذا النظام الذي انتقده شـر انتقـاد ، الا انه كان صاحب اليد العليا في هـــدم هذا النظام وتقويض دعائمـــــه لقد قرض دعائم الأرستقراطية ، وهو خلال هذا كان يقوض ايضا الملكية المطلقـــة التي كانت تستنـــد الى هذه الأرستقراطية). وهذا هو اكبـر عمل قـــام بـــه فولتيـــر لقد جعـــل النظام القديم غير قادر على أن يستمـــــــر واصبح الشعب يتطلع الى نظام حكم جديد غير ذلك الذي يسيء الى فرنسا

وكان من قام بمهمة وضع نظام جديد لفرنســا على حســاب ذلك النظام القديم كل مـــن مونتسكيـــــو وجان جاك روســـــــــو.

كان النظام القديـــم يقـوم على أساس الملكيـــــــــة المطلقة التي تحكم باسم **" الحق الإلهي "** وان الملك هو الحاكـــــــم الأعلى المفـــــــوض من قبل الله ، ومـــــــن ثم فلا بـــد للشعب أن يحتـــرم الملك وان يطيعه وإلا يتمرد عليه . لقد كانت هذه الأفكار التي دعا اليها بوسويه (1627 - 1704)، ملائمـــة كل الملائمة لعصـــر لويس الرابـــع عشـر.

ولقد أظهرت نظريات اخرى تعـــارض هذه الأسعـــار بشـــدة وتخص بالذكر الفيلســـوف الانكليزي لوك (1632 – 1704) حيث أنه هو الذي دعا إلى تقييـــد مبادلات الملك ، واعطى الشعب الحـق في الثورة إذا تجاوز الملك حدوده ، إنها أفكار ملائمة لبريطانيا التي ثارت على الملكيـة المستبدة انتقلت هذه الأفكار التي نادى بها لوك من انكلترا الى فرنسا ، وكان داعيتها فيها ، ولكن بشكل معـــدل ، الفيلسـوف الكبير مونتسكيو (1689 - 1755) صاحب كتاب (روح القوانين) الذي أصدره عام 1748

كان مونتسكيو ، على خلاف فولتير ، لا يهدم النظام القديم فقط، وإنما يحاول أن يضـــع أمام الناس نظاما سيقوم على أساس احترام حرية الفرد ، وعلى اساس تقييد سلطات الحاكم ، وربط عمل الحكومة بمصلحة الشعب ككل لا بمصلحة الملك او الأرستقراطية ، وهو خلال بحثه عن النظام الملائم لفرنسا وضع دراسة ممتعة النظم الحكم الجمهورية الديمقراطية ، والجمهورية الأرستقراطية والملكية المستبـــــــدة ، والملكية المقيدة كان مونتسكيو في أول الأمر يميل الى النظام الجمهوري الديمقراطي النيابي الذي تكون فيه السيادة للشعب ، والذي يكون فيه البرلمان انتخابي ولكن في أعقاب زيارة مونتسكيو لبريطانياومشاهدته عن قرب الحكم الملكي البرلماني الإنكليـــزي أصبـــح يعتقد أن مثل هذا النظـــام هو الملائم لفرنســا . كان يريد لفرنسا ملكية دستورية برلمانية انتخابية تحترم حقوق الأفراد والحريات العامة

لم يكن مونتسكيو ضد نظام الحكم الملكي لمجرد انه يضع على راس الدولـة ملك وإنما كان ضده لأن هذا الملك مستبد في حكمه وانه يركز السلطات في يد الأرستقراطيـة التي تتحكم في الشعب وفي حرية الأفراد لا أخلاقيا . وانتقد الاكليروس الكاثوليكـــــي ، أي رجال الدين الكاثوليك ، بعنف شديد لأنه كان يضطهد الناس بسبب الخلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت وكان الأجـــدى بالاكليروس ، من وجهة نظر مونتسيكو ، أن يكون رســـول التسامح الديني ونصيـــر الحريـــة

وعلى أي حال، وضع مونتسكيو أمام الشعب الفرنسي نموذج من الحكم كان الشعب يبحـــث عنه ويريده حكم يقوم على الحرية، وعلى اساس الدستور، وعلى اساس البرلمان المنتخـــب، والملك المقيد السلطات لقد هز فولتير كيان النظام القديـــم ، وها هو مونتسكيو يضع نظامـــا بديلا لذلك .النظام القديم .. لقد خطا مونتسكيـــو خطوة أكثر تقدمية ، اذ دعا إلى نظام الحكم الملكي الدستوري النيابي

اما ثالث الفلاسفة الكبار قبل الثورة الفرنسية هو جان جاك روسو (1712 - 1778)الذي طالـــب بان يكون الحكـــم للشعب ، والذي عد بحـــق " أبو الديمقراطيـــــــة..

ولروسو ثلاثة مؤلفات هي : الاعترافات ؛ تربية إميل (او أميل) ؛ العقد الاجتماعي والكتاب الأخير هو الذي أعطى لروسي هذا الصيت الذائع في مختلف أرجاء العالم، ولكن ليس معنـــــى هذا أن فكرة العقد الاجتماعـــي من ابتداع روســـــو بل سبقه كثيـــــرون قبله ، ولكن قيمـــــــــة روميو و (عقده الاجتماعي) أنه صـــدر في الوقت الذي كانـــت فيه التيارات السياسيـــة تدفع الشعـــــب الفرنسي الى الاقتنـــاع بـــه والمطالبـــة بحقـــوق الشعـــب..

كان جـــان جاك روسو فيلسوفا له نظراته في المجتمـــــــــــع وفي الحياة ، وفي التعليـــــم ، وهو ليس بقانوني ، ومن ثم فكتابه وفلسفته السياسية تستند إلى التصـــور والآمال أكثر من أن تكون قائمـــــة على اساس البحث والتحليل والمقارنة ، ومن هنا جانب الخيال في العقد الاجتماعي واضحاً

ونظرية " العقد الاجتماعي " تهدم ، الى حد كبير ، تهدم ، الى حد كبيـــر ، النظريات السياسية السابقـة عليه . ولقد سبق الإشارة الى لوك ، وكان من بين المبـــادئ التي نادى بها ان الشعـــب هو الذي يفوض السلطة للحاكم بشروط معينة ، وان الشعـب له الحق في ذلك التفويض واضعا وبذلك مبدأ حق الشعب في الثورة على حاكمة اذا ما اخل الملك بالشروط المتعاقد عليها بين الشعب والحاكم

أما روســو فقد ذهب الى ما هو أبعد من ذلك. فهو يرى إن الأفــراد الذين يكونون مجتمعا إنسانيا يفعلون بمقتضـــى عقد اجتماعي فيما بينهم ، ويجدون أنه لكي تستقر الأمـــور في مجتمعهم يجـــــب أن تكون هناك برابطة عامة أو إرادة عامة يخضعون لها جميعا ويساهمـــون فيها على قدم المســـــــاواة ، ومن هنا ظهرت الدولة على اساس العقـــــد الاجتماعي الذي ابرمه أفراد المجتمع . والحاكم هنا يحكم بصفته وكيل عن الأمة وعليه أن يلتزم بما تريد الأمـــة ، وإذا انحرف عن ذلك عزل عن منصبـــــــه ومن ثم فروستـــو ينكر أن يكـــون هناك حاكـــم يستمد سلطاته من مصـــــــدر غير الأمة ويرى أن كل حاكم لا يستند الى الشعب في حكمة بعد حاكما غير شرعي وهو لا يشير الى أي أمير في كتابـه وإنما يتكلم عن الحاكم الذي هو بمثابة الوكيل عن الشعب . وحين تكلم روسو عن موقف أفراد المجتمع عندما تعاقدوا فيما بينهم على إنشاء نظام سياسي لم يشر لا من قريب أو من بعيد عن الطبقات المميزة الأرستقراطيـة أو غير الأرستقراطية ، وإنما كان الجميع متساوون في هذا " العقد الاجتماع "

ولكن هل كان روسو ثوريا ؟ يهدف الى إسقاط الملكية ، وإعلان النظام الجمهوري مكانها ؟

الواقع أن روسو كان دائما يحذر من الانقلابـــات والثورات ، بل انه اصدر كتاب في 1762 ، ولم تقع الثورة الفرنسية الا في 1789 أي بعد حوالي ربع قرن من إصداره . ومرت تلك المدة الطويلة نسبيا دون ان تتحرك الأمة الفرنسيـــة وهـــذا

يرجع الى حد ما الى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والإدارية لم تكن قد تهيأت بعـد التفجير الثورة وكانت هذه الظـــروف خلال تلك المدة تتهيأ لتقويـــة الاتجاهات السياسيـــــة نحو حرية الفرد والمساواة المطلقة بين أفراد المجتمع ، وحـــق الشعب في أن يختـــار الوكلاء عنه والمسئوليـــن عن إدارة شؤون البلاد دون التقيد بنظام ملكي معيـن..

أن قيمة روسو هي انه حطم نظرية النظام القديم ، ورفع من شان الفرد ، وجعـــل المساواة اسيا المجتمع ولهذا كان في نظر رجالات الثورة الفرنسية بينها والداعي اليها . ولكـن الحقيقة التي يجب ان نؤكد عليها أن الظروف العامة ، والتي أصبحت عليها الملكية والبلاط والوزراء وطبقات الأمة المختلفـة والمؤسسات الحكومية والتمثيلية والظروف الاقتصادية هي المسؤولة عن نشـــوب الثورة الفرنسية ، وليســـت أفكار روسو ومونتسكيو وفولتير وحدها

فضلا عن تلك التطورات فقد شهدت القارة الأوربية في القرن الثامن عشر عددا من الحـــــروب كاتب فرنسا طرفا فيها مما أثر على الأوضاع السياسية والاقتصادية لفرنسا ودول أوربا الأخـــــرى..